



الإدريسي

هو محمد بن محمد الشريف الإدريسي صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق». ولا ريب في أنه من أعلام الجغرافيين المسلمين الذين كان للرحلات شأن عظيم في آثارهم العلمية. ولد في سبته سنة ٤٩٣هـ (١١٠٠م). ودرس في جامعة قرطبة، ثم طاف في الأندلس وشمال إفريقيا وآسيا الصغرى. ويقال أيضا إنه زار فرنسا وإنجلترا. ثم لبى دعوة الملك رجار Roger الثاني فنزل في بلاطه بصقلية، حيث كان التأثير بالمدينة الإسلامية لا يزال عظيما.

وكان رجار قد أراد - جريا على سنة كثير من الأمراء الشرقيين - أن يؤلف له كتاب شامل في وصف مملكته وسائر الآفاق المعروفة في ذلك العهد، فجمع ما كتب المؤلفون في هذا الميدان. ووقع اختياره على الشريف الإدريسي ليصنف له كتابا في وصف الكرة الأرضية الفضية التي صنعت له مرسوما عليها جميع الأقاليم المعروفة حينئذ. وطبيعي أن هذا الاختيار يشهد بما كان للمسلمين من تفوق في العلوم والفنون في ذلك العصر. وقد تم تأليف هذا الكتاب المسمى «نزهة المشتاق» قبل وفاة رجار سنة ٥٤٨هـ

(١١٥٤م) وظل الكتاب ينسب إلى أمير البلاد فيقال «كتاب رجار» أو «الكتاب الرجاوى».

واستعان الإدريسي في كتابه مؤلفاته الجغرافية الواسعة بما أفاده من رحلاته الخاصة، وبما جمعه الرواد الذين أوفدهم الملك رجار إلى أقاليم المختلفة لاستطلاع أوصافها وتحقيق مواضعها، وبما قيده من أحاديث الرحالة والتجار والحجاج في السفن التي كانت تمر بموانئ صقلية، إلى جنب ما استطاع الحصول عليه من بيانات عن البلاد المسيحية بفضل رعاية الملك رجار المسيحي. والواقع أنه، بهذه البيانات امتاز على سائر الجغرافيين المسلمين فإن من سبقه منهم لم يستطع الكتابة على أوروبا في شيء من الدقة، ولم يظهر بمشاهدات أولئك الرواد الذين أوفدهم الملك حتى إلى أقصى الأطراف مثل اسكندناوة. أما الذين خلفوه فقد عمد معظمهم إلى نقل ما كتبه هو في هذا الصدد.

وطبيعي أيضا أن يمتاز كتاب الإدريسي بغرابة مادته في جغرافية المغرب وصقلية مما يشهد بأنه ساح في تلك الآفاق. أما فيما يخص الشرق فقد نقل كثيراً عن سبقه من المؤرخين. ومع ذلك كله، فإن ما كتبه عن مصر والشام وفرنسا وإيطاليا وألمانيا والأراضى المطلة على البحر الأدرياتيكي يشهد بأنه أفاد كثيراً من سياحاته الخاصة أو سياحات غيره من الرواد. وكتب الإدريسي كثيراً في الغوص عن اللؤلؤ فأحسن عرض هذا الموضوع وألم بأطرافه^(١).

وأكبر الظن أن كتب الإدريسي وصلت إلى العلماء المسيحيين بصقلية في العصور الوسطى؛ ولكننا لا نظفر بدليل على ذلك؛ لأن أقدم ترجمة نعرفها

(١) راجع كتاب «حديث السندباد القديم» للدكتور حسين فوزى ص ١٤٦.

لكتابه «نزهة المشتاق» كانت إلى اللاتينية في بداءة القرن السابع عشر الميلادي .
والذى لا شك فيه أن الغربيين اعتمدوا هذا الكتاب في تقويم البلدان ، ولا سيما بلاد الشرق ، إلى أن تقدم علم الجغرافيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وحسبنا أن نشير إلى ما كتبه البارون دى سلان . (في عدد إبريل سنة ١٨٤١ من المجلة الآسيوية الفرنسية)؛ فقد قال : «إن كتاب الإدريسي لا يمكن أن يوازن به أي كتاب جغرافي سابق له وإن ثمت بعض أجزاء من المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ والجغرافي في الأمور المتصلة بها» .

ولا شك في أن ما كتبه الإدريسي عن صقلية يشهد بالتسامح الديني الذى كان سائدا فيها برعاية الحكام النورماندين الذين كانوا يحثون رعاياهم المسلمين على التمسك بأهداف دينهم والذين يقالإنهم كانوا لا يأذنون للمسلم أن يرتد عن الإسلام . ولا غرو في ذلك فقد كان هؤلاء الحكام شبه شرقيين في مظاهر حضارتهم المختلفة .

ومما يؤسف له أننا لا نعرف شيئا كثيراً عن سيرة الإدريسي . وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن مرجع هذا أن المؤلفين العرب كانوا يتجاهلون وجوده لإسرافه في مدح رجار ، ولإنصافه المسيحيين في صقلية إلى أبعد حد ، في وقت كان المسيحيون فيه يشنون على المسلمين الحروب الصليبية الشعواء ، أو يعلمون على طردهم من الأندلس . ولكن هذا التعليل لا يقوم على أساس متين ؛ لأن شكنا في شأن ضياع سيرة الإدريسي تصلح أيضاً لسيرة كثير من سائر الجغرافيين المسلمين ، الذين لم يتصلوا بالمسيحيين ولم يسرفوا في مدحهم .





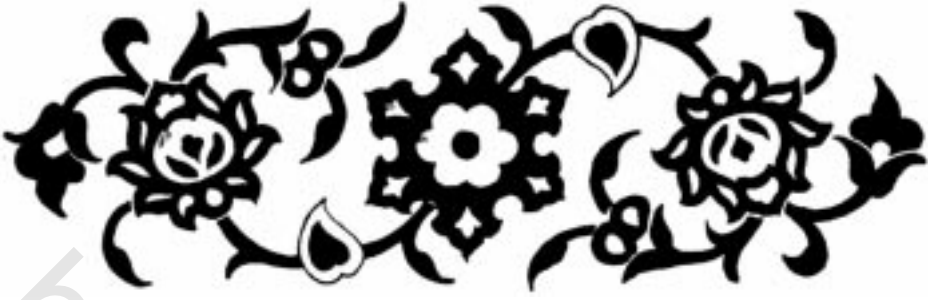
السمعاني

هو عبد الكريم بن أبي بكر السمعاني من علماء مدينة مرو. ولد سنة ٥٠٦ هـ (١١١٢م) من بيت كريم انتهت إليه رئاسته. وقام برحلات طويلة في طلب العلم والحديث؛ حتى قيل إن عدد شيوخه زاد على أربعة آلاف. والمعروف أنه زار بلاد ما وراء النهر Transoxiane وجال في أقاليم الشرق الإسلامي، ولا سيما إيران والعراق والشام والحجاز، ولعله طاف في «غيرها من البلاد التي يطول ذكرها ويتعذر حصرها»، على حد قول ابن خلكان في ترجمته.

ويتجلى علم السمعاني ببلاد الإسلام في مؤلفه «كتاب الأنساب» الذي جمع فيه بضعة آلاف من التراجم مرتبة على حروف المعجم، ونسب كل واحد منها إلى بلد أو قبيلة أو صناعة أو تجارة أو غير ذلك؛ فكان يضبط حروف النسبة ويشرحها، وإذا كانت إلى بلد ذكر موقعه ثم ترجم لصاحب الاسم. والحق أن مثل هذا المعجم المطول من الأعمال العلمية الجليلة، التي تتطلب الأسفار الطويلة والاطلاع الواسع. وقد لخص «كتاب الأنساب» أو

أجمله عدد من المؤلفين . واختصره السمعاني نفسه في كتاب طبعته مصوراً
لجنة تذكّار جب Gibb Memorial سنة ١٩١٢ .





ابن جبیر

كان كثير من الحجاج القادمين من الأندلس يزورون المغرب ومصر والشام في طريقهم إلى الحجاز، ثم ينتهزون هذه الفرصة للطواف في بعض الأقاليم الإسلامية الأخرى. وأعظم أولئك الحجاج شأنًا في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) هو ابن جبير؛ فقد قام بثلاث رحلات إلى الشرق ودون أخبار الرحلة الأولى في شبه مذكرات يومية تعرف باسم «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار». ولعله كتبها حول سنة ٥٨٢هـ (١١٨٦م). وقد قام على نشرها المستشرق الإنجليزي رايت W. Wright سنة ١٨٥٢ ثم ظهرت منها طبعة جديدة سنة ١٩٠٧ راجعها المستشرق الهولندي دي خويه.

ولد ابن جبير في مدينة بلنسية سنة ٥٤٠هـ (١١٤٥م). ودرس على أبيه وغيره من علماء العصر في سبتة وغرناطة، ثم دخل في خدمة أبي سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة. ومما جاء في ترجمة ابن جبير عن كتاب نفخ الطيب للمقرئ أن الأمير أبا سعيد استدعاه يومًا ليؤلف فيه كتابًا وهو في مجلس شرابه وحدث أن دفع إليه كأسًا من النبيذ، فاعتذر ابن جبير بأنه ما شرب الخمر قط، فقال الأمير: والله لتشربن منها سبعا؛ فلم يستطع إلا

الإذعان. وكافأة الأمير بأن قدم إليه القدح سبع مرات أخرى مملوءة بالدنانير
وصب ذلك في حجره. وانصرف ابن جبير. وعقد العزم في الليلة نفسها
على أن يذهب لتأدية فريضة الحج تكفيراً عن ذنبه في شرب النبيذ. وأنفق
تلك الدنانير في سبيل البر وباع عقاراً له تزود به.

بدأ ابن جبير رحلته إلى الأراضى الحجازية في شوال سنة ٥٧٨هـ
(فبراير سنة ١١٨٣م) مع صديق اسمه أحمد بن حسان كان من رجال الطب
والعلم والأدب. وعبر الصديقان البحر إلى مدينة سبتة Cauta حيث وجدا
سفينة من سفن مدينة جنوة، تريد الإقلاع إلى الإسكندرية، فركباها يوم
الخميس ٢٩ من شوال (٢٤ فبراير) وبدأ ابن جبير تقييد يومياته منذ اليوم
التالي. ومما يشهد بأن العلاقات بين الأفراد المسيحيين والمسلمين كانت طيبة أن
ابن جبير سره التوفيق لتلك السفينة وكتب أن الله «سهل عليه وعلى صديقه
ركوبها».

أقلعت السفينة من ثغر سبتة الواقع على شاطئ مراكش في مواجهة
جبل طارق. وسارت محاذية لشاطئ الأندلس حتى ثغر دانية جنوبي بلنسية.
ثم اتجهت شرقاً مارة بجزائر البليار. وكادت أنواء البحر وأمواجه أن تعبت
بها، لولا مركباً مسيحياً آخر، كان قادماً من قرطاجنة الإسبانية وميمها شطر
صقلية، فاقتفت أثره. واستطاعت أخيراً أن تصل مع ذلك المركب إلى
برسردانية حيث جدد المسافرون الماء والحطب والزاد. وقيد ابن جبير أن مسافراً
مسلماً ممن يعرفون اللسان الرومى هبط مع جماعة من الروم إلى أقرب
المواضع المعمورة من المرسى الذى وصلت إليه السفينة فرأى نحو ثمانين من

أسرى المسلمين رجالاً ونساء يباعون في السوق، وكان الروم قد عادوا بهم من غزوة في سواحل البحر ببلاد المسلمين.

أقلعت السفينة بعد ذلك إلى صقلية. ووصف ابن جبير ما مر بها من العواصف والأهوال إلى أن أرسى على شاطئها عند موضع لم يحدده. ثم فارقت إلى ثغر الإسكندرية فوصلت إليه في ٢٩ من ذى القعدة أي بعد شهر من بدء رحلتها من مراكش.

وطبوعي أن أول ما شاهدته ابن جبير في الإسكندرية إنما كان متصلاً بما نسميه اليوم «إجراءات الجمرك». والحق أنه وصفها في دقة وطرافة، تحملنا على روايتها على لسانه، لتبين أن كثيراً من الأنظمة التي تبدو لنا اليوم من تمخضات مدينتنا ليس في الحق إلا تطوراً طبيعياً لما عرفه القوم في العصور الوسطى.

قال ابن جبير: «فمن أول ما شاهدنا فيها (أي في الإسكندرية) يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه؛ فاستحضر جميع من كانوا فيه من المسلمين واحداً واحداً، وكتبت أسماءها وصفاتها وأسماء بلادهم وسئل كل منهم عما لديه من سلع أو ناض (نقد) ليؤدي زكاة ذلك كله، دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل. وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم فلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل هل حال عليه حول أم لا. واستنزل أحمد بن حسان منا، ليسأل عن أنباء المغرب وطلع المركب؛ فطيف به مرقباً على السلطان أولاً. ثم على القاضي ثم على أهل الديوان ثم على جماعة من حاشية السلطان، وفي كل يستفهم ثم يقيد قوله فيخلى سبيله.

وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم وما فضل من أزودتهم . وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم وبحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان ، فاستدعوا واحداً واحداً وأحضر ما لكل واحد من الأسباب . والديوان قد غص بالزحام فوقع التفتيش لجميع الأسباب ، ما دق منها وما جل . واختلط بعضها ببعض . وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها . ثم استحلّفوا بعد ذلك هل عندهم غيرى ما وجدوا لهم أم لا . وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدى وتكاثر الزحام . ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزى عظيم . . . وهذه لا محالة من الأمور الملبس فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين . ولو علم بذلك ، على ما يؤثر عنه من العدل وإيثار الرفق ، لأزال ذلك وكفى الله المؤمنين تلك الخطة الشاقة ، واستؤدوا الزكاة على أجمل الوجوه . وما لقينا ببلاد هذا الرجل ما يلم به قبيح لبعض الذكر سوى هذه الأحداث ، التى هي من نتائج عمال الدواوين .

فقد ألم ابن جبير أن يساء إلى الحجاج المسلمين ، وأن يطلب إليهم أداء الزكاة عن جميع ما معهم ، بدون تفرقة بين الذى حال الحول فاستحقت عليه الزكاة وما لم يحل عليه الحول فلا زكاة عليه ، كما آلمته القسوة في تفتيشهم . والظاهر أن هذه الدقة في «جمرك» الإسكندرية قديمة ، فقد ذكر الأستاذ نقولا زيادة في كتابه «رواد الشرق العربي» ، الذى أخرجته مجلة المقتطف ، أن السائح المسيحي برنارد الحكيم روى عن نفسه (في القرن التاسع الميلادي) أنه فتش في الإسكندرية وحقق معه ، ودفع ستة دنانير ذهبية .

وقد لقي ابن جبير مثل هذا التفتيش بالإسكندرية في رحلته الثانية إلى مصر؛ فكتب قصيدة يمدح فيها السلطان صلاح الدين ، ويشير إلى فتحه بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) ، وينصحه بإزالة هذه الأساليب التى تهتك فيها الحرمات وتنسى حقوق المسلمين ، ومن أبيات هذه القصيدة :

يعنت حجاج بيت الإله ويسطو بهم سطوة الجائر
ويكشف عما بأيديهم وناهيك من موقف صاغر
وقد أوقفوا بعد ما كوشفوا كأنهم في يد الأسر
ويلزمهم حلفا باطلا وعقبى اليمين على الفاجر
وإن عرضت بينهم حرمة فليس لها عنه من ساتر
وليس على حرم المسلمين بتلك المشاهد من غائر
ألا ناصح مبلغ نصحه إلى الملك الناصر الظافر
فما للمناكر من زاجر سواك وبالعرف من آمر
وحاشاك إن لم تزل رسمها فما لك في الناس من عامر

أما الطواف بأحمد بن حسان - زميل ابن جبير - على طائفة من الموظفين لسؤاله عن أنباء المغرب، فيذكرنا بما يحدث اليوم بين دول المتحاربة من استجواب القادمين إليها من أبناء بلاد الأعداء أو ممن مروا بتلك البلاد؛ ليتمكن الاستفادة مما قد يدلون به من أخبار. ومما يؤسف له أن ابن جبير لم يدرون شيئاً عما اتبع الشجر مع المسافرين من غير المسلمين.

عرض ابن جبير بعد ذلك لوصف الإسكندرية فذكر آثارها وعمائرها ومنازلها وأعجب بما فيها من مدارس للغرباء «يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوى إليه ومدرساً يعلمه الفن الذى يريد تعليمه» كما أشار إلى المستشفى الذى شيده السلطان لأولئك الغرباء، وإلى الخيرات التى أوقفها للعناية بهم. ولاحظ كثرة المساجد إلى حد أن توجد منها الأربعة والخمسة في موضع واحد. وأتيح لابن جبير أن يشاهد في الإسكندرية دخول

الأسرى الصليبيين، الذين وقعوا في يد المسلمين في الحملة الصليبية الفاشلة، التي كان صاحب الكرك قد دبرها في البحر الأحمر للاستيلاء على المدن الإسلامية المقدسة. وقد أدخل الأسرى «راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنانها وحولهم الطبول والأبواق».

ثم انتقل ابن جبير إلى القاهرة ومصر - وهذا الاسم الأخير هو الذي كانت تعرف به حينئذ مدينة الفسطاط وضواحيها المتصلة بالقاهرة - ونزل بفندق أبي الشاء في زقاق القناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص. وأقام في عاصمة البلاد أياماً؛ زار فيها مشهد الحسين والقرافة وضريح الإمام الشافعي، والمدرسة الناصرية التي شيدها بإزائه السلطان صلاح الدين، ولم تكن عمارتها قد تمت بعد. وأعجب ابن جبير بسعتها فكتب: «يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته. بإزائها الحمام إلى غير ذلك من مرافقها». وحرص على لقاء شيخها نجم الدين الخبوشاني، لأنه كان قد سمع في الأندلس بفصله وبركته. ثم شاهد مارستان القاهرة وبنان القلعة والسور الذي كان صلاح الدين يريد أن يتخذة حول القاهرة والقطائع والعسكر والفسطاط فيجمع عواصم مصر الإسلامية كلها. وقد عثرت دار الآثار العربية في حفائرها على أطلال هذا السور.

كما شاهد القناطر التي شيدها السلطان عند بدء الصحراء الغربية «بعد رصيف ابتدئ به من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض تسير فيه مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة». وكانت القنطرة والطريق المرصوف معاً جزءاً مما أعده السلطان للدفاع عن البلاد من جانب الغرب. ولاحظ ابن جبير أن جميع المسخرين في العمائر والمنشآت المختلفة كانوا من أسرى الروم. ووصف أهرام الجيزة «وأبا الهول».

وأشار في حديثه عن القاهرة إلى فضل السلطان صلاح الدين في محو المكوس، التي كانت مفروضة على الحجاج في عصر الدولة الفاطمية، والتي كانت تجبى يضطهدون ويعذبون في سبيل دفعها؛ وأما الذين لا يدفعون الضريبة في عيذاب، وتصل أسماؤهم إلى جدة «غير معلم عليها علامة الأداء» فكانوا يلقون فيها أضعاف هذا التنكيل. فأبطل صلاح الدين هذه المكوس، وعوض أمراء مكة بما يرسله إليهم سنوياً من الطعام والمال.

ثم صعد ابن جبير في النيل إلى قوص. ووصف بعض المعابد في المدن التي توقفت عندها المركب، كما شرح ما يلقاه الحجاج والمسافر من عسف العمال المكلفين جمع الزكاة، فقد كانوا يعترضون المركب ويفتشون المسافرين ويفحصون الأمتعة بوساطة مسلة طويلة يتخللون بها الأكياس والحزم.

ودخل ابن جبير قوص فكتب أنها حافلة الأسواق، متسعة المرافق، كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار المصريين والمغاربة واليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة. ثم سافر منها إلى عيذاب بطريق الصحراء الذي ذاعت شهرته في عالم التجارة في العصور الوسطى. ووصف ابن جبير هذا الطريق وأشار إلى ضخامة تجارته في الفلفل وأنواع التوابل فقال «ورمنا في هذا الطريق إحصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا، ولا سيما القوافل العيذاوية المتحملة لسلع الهند الواصلة إلى اليمن ثم من اليمن إلى عيذاب وأكثر ما شاهدنا من ذلك أحمال الفلفل فلقد خيل إلينا لكثرتة أنه يوازي التراب قيمة. ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقي بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرهما من السلع مطروحة لا حارس لها، تترك بهذا السبيل إما لإعياء الإبل الحاملة لها، أو غير ذلك من الأعذار.

وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات، على كثرة المارة عليها من أطوار الناس.

وصل ابن جبير إلى عيذاب ولاحظ أنها من أعظم الثغور شأناً «بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائداً إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة». كما لاحظ أنها في صحراء لا نبات فيها ولا يؤكل فيها شيء إلا مجلوب؛ ولكن أهلها في نعمة بما يكسبونه من خدمة الحجاج ولا سيما من تأجير الجلاب - والواحدة جلبة - وهي المراكب التي تنقل الحجاج بين عيذاب وجدة. وقد وصفها ابن جبير وصفاً فريداً؛ لأنها كانت غريبة لا يستعمل فيها مسمار البتة. وكان أهل عيذاب لا يحفلون براحة الحجاج؛ فكانوا «يشحنون الجلاب بهم، حتى يجلس بعضهم على بعض وتعود بهم كأنها أفصاص الدجاج» لكي يستطيع صاحب الجلبة منهم أن يستوفى ثمنها في رحلة واحدة. والواقع أن ابن جبير قدر أن الحلول بعيذاب من أعظم المكاره التي حف بها السبيل إلى الحج، فقد كان ساخطاً على هوائها الذي «يذيب الأجسام» ومائها «الذي يشغل المعدة على اشتهاء الطعام» وسكانها «الذين لا خلاق لهم ولا جناح على لاعنهم». وأشار في هذه المناسبة إلى ما يزعمه الناس من أن سليمان بن داود كان اتخذها سجناً للعفارة. ونصح ابن جبير بتجنبها وبتأخذ طريق الشام. والحق أن هذا الطريق الأخير ومثله طريق العقبة، كان طريقاً طبيعياً ولا سيما لحجاج المغرب والأندلس. ولكن وجود الصليبيين في الشام حمل معظم الحجاج على التحول إلى طريق عيذاب.

على أن الجزء الأساسي في رحلة ابن جبير إنما هو وصف مكة والمسجد الحرام ومناسك الحج وزيارة المدينة؛ فقد استغرق هذا كله أكثر من ثلث

الكتاب، ووفق فيه الرحالة لتدوين أخبار وملاحظات ذات شأن عظيم في دراسة التاريخ والآثار الإسلامية. ولا عجب فقد أقام بمكة حول ستة شهور. وغضب ابن جبير لما شاهده من سوء معاملة الحجاج، وإمعان أهل مكة في استغلالهم، لولا تدارك صلاح الدين بإرساله المال والطعام إلى مكث الحسنى أمير مكة، فضلا عن منحه إقطاعات في صعيد مصر واليمن. غير إن غياب صلاح الدين في حروبه مع الصليبيين في الشام كان يشجع مكث الحسنى على التمداد في نهب الحجاج، حتى تمنى ابن جبير أن تظهر تلك الأراضي المقدسة بسيوف مولاه ملك الموحيدين.

وكان أمراء مكة يدينون بالطاعة للخليفة العباسي ولصلاح الدين؛ ولكنهم كانوا ينعمون بقسط وافر من الاستقلال، ما دام الخليفة العباسي ضعيفا، وما دام صلاح الدين مشغولا بقتال الصليبيين. وذكر ابن جبير أن الخطيب في الحرم الشريف كان يدعو يوم الجمعة للخليفة العباسي. ثم لأمر مكة ثم للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ولأخيه وولى عهده أبي بكر. «وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء تخفق الألسنة بالتأمين عليه في كل مكان. وحق ذلك عليهم، لما يبذله من جميل الاعتناء بهم وحسن النظر لهم، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم». وليس هذا هو الوضع الوحيد الذي أشار فيه ابن جبير إلى صلاح الدين بأعظم الإعجاب والتقدير.

أكمل ابن جبير حجته؛ ولكنه لم يعقد العزم على العودة إلى وطنه مباشرة. ولم يكن ليفكر في الرجوع من طريق عيذاب؛ فرافق ركب الحجاج العراقي، ومر بطريق نجد قاصدا الكوفة؛ ودون أن هذه المدينة «كبيرة عتيقة البناء قد استولى الخراب على أكثرها، ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها، فهي لا تزال تضر بها». وعبر الفرات عند مدينة الحلة على

جسر جديد أمر الخليفة بتشبيده لراحة الحجاج . وكان هذا الجسر معقودا على
مراكب كبار متصلة من الشط إلى الشط ، تحف بها من جانبها سلاسل من
حديد «كأذراع المفتولة عظما وضخامة ، ترتبط إلى خشب مثبتة في كلا
الشطين تدل على عظم الاستطاعة والقدرة» . واجتاز ابن جبير بظاهر مدينة
الحلة جسرا آخر على نهر متشعب من الفرات يسمى «النيل» .

وأخيراً ألقى الرحالة عصا التسيار في بغداد . ووصف أحياءها المختلفة
ومساجدها وأسواقها وحماماتها ومدارسها ومستشفياتها ؛ ولكنه لم يجد
العاصمة العباسية على حسب ما تخيل فكتب : «إن هذه المدينة العتيقة ، وإن
لم تزل حاضرة الخلاصة العباسية ، . . . قد ذهب أكثر رسمها ، ولم يبق منها
إلا شهير اسمها . . . أما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع
رياء ، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء . يزدرون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم
الأنفة والإباء ، ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء . قد تصور كل
منهم في معتقده وخلده أو الوجود يصغر بالإضافة لبلده ؛ فهم لا يستكرمون
في معمر البسيطة مثنى غير مثواهم ، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلاداً أو عباداً
سواهم . . . يظنون أن أسنى الفخار في سحب الإزار . . . يتبايعون بينهم
بالذهب قرضاً ؛ فلا نفقة فيها إلا من دينار تقرضه ، وعلى يدى مخسر للميزان
تعرضه ، لا تكاد تظفر من خواص أهلها بالورع العفيف ، ولا تقع من أهل
موازينها ومكاييلها إلا على من ثبت له الويل في سورة التطفيف . فالغريب
منهم معدوم الإرفاق متضاعف الإنفاق ، لا يجد من أهلها إلا من يعامله
بنفاق ، أو يهش إليه هشاشة انتفاع واسترفاق . . . فسوء معاشره أبنائها يغلب
على طبع هوائها ومائها . . . أستغفر الله إلا فقهاءهم المحدثين ووعاظهم
المذكرين . . . لكنهم معهم يضربون في حديد بارد» .

والحق أن ابن جبير كان قاسياً على أهل بغداد قسوة تذكرنا بقسوة الطبيب ابن رضوان (القرن ٦هـ، ١٢م) على المصريين عامة، حين أسرف في وصفهم بالجبن والبخل وما إلى ذلك، حتى لاحظ أن كلابهم أقل جرأة وبهائمهم أشد ضعفاً من الكلاب والبهائم في سائر الأقاليم^(١).

وعرض ابن جبير في وصف بغداد لقصور الخليفة وأسرته. وذكر أن بنى العباس كانوا وقتئذ متعلقين اعتقالاتاً جميلاً لا يخرجون ولا يظهرون ولهم المرتبات القائمة، ولم يكن للخليفة وزير؛ بل كان له موظف لشؤنه الخاصة، يعرف بنائب الوزارة، وله فضلاً عن ذلك قيم على الدولة كلها يعرف بالصاحب أستاذ الدار ويدعى له في الخطبة إثر الدعاء للخليفة.



وانتقل ابن جبير إلى الموصل ماراً بسر من رأى وتكريت وأعجب بما في الموصل من عمائر حربية ودينية ومستشفيات. ثم واصل الرحلة بين مدن الشام المختلفة فوصف آثارها، وتحدث عن عادات أهلها وعن عنايتهم بالغرباء. ودون «أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم، ويقولون: هؤلاء ممن انقطع إلى الله عز وجل فتجب مشاركتهم».

والحق أن ابن جبير نبه إلى ما كان من مودة وعلاقات تجارية بين أفراد المسلمين والمسيحيين، حتى في العهد الذي كانت الحروب الصليبية ناشبة فيه بين أمراء الفريقين، فقد كتب في رحلته: «ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربما يلتقى الجمعان ويقع المصاف

(١) راجع الفصل الذي كتبه الأستاذ فييت عن سكان مصر في كتاب:

Hautecoeur et G. Wiet: les MNosquees du Caire ج ١ ص ٦٦ - ٧١

(القتال) بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم. شاهدنا في هذا الوقت الذى هو شهر جمادى الأولى من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك، وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشق قليلاً، وهو سرارة أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة، يذكر أنه ينتهى إلى أربعمائة قرية، فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال حصاره، واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم. وهي من الأمانة على غاية. وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب. هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم، وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك، ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً، وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه».

ولاحظ ابن جبیر أن الفلاحين المسلمين في الأرض التابعة للمسيحيين كانوا في رخاء، بينما كان إخوانهم الفلاحون المسلمون عند الملاك من بنى دينهم لا ينعمون بمثل ذاك الرفق والعدل. قال ابن جبیر: «ورحلنا من تبين سحر يوم الإثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منظمة، سكانها كلها مسلمون وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه... وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط، ولا

يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدون أيضا؛ ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم، وكل ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذا السبيل، رساتيقها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع، وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم، لما يبصرون عليه إخوانهم من رساتيق المسلمين وعمالهم، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق. وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكى الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج ويأنس بعدله».

لاحظ ابن جبير أن الصليبيين كانوا يفرضون على المسلمين المغاربة ضريبة خاصة قدرها دينار على كل شخص. ودون أن السبب في ذلك أن طائفة من المجاهدين المغاربة اشتركت مع مسلمي الشرق الأدنى في فتح أحد الحصون الصليبية؛ وكان لهم الفضل الأكبر في هذا الميدان. والظاهر أن الصليبيين ضايقهم قدوم المغاربة من بلادهم البعيدة للمساهمة في قتالهم، فجزؤهم بهذه الضريبة «وقال الإفرنج إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزأهم شيئا، فلما تعرضوا لحربنا وتآلبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم». ولكن الواقع أن اشتراك المغاربة في الحروب الصليبية في الشرق ليس غريبا في شيء، ولا سيما إذا تذكرنا أن بلاد المغرب والأندلس كانت في حروب صليبية مع المسيحيين قبل أن تشب الحروب الصليبية في الشرق الأدنى.

ووصل ابن جبير إلى عكا في العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ هـ ١٨ من سبتمبر ١١٨٤، ووصفها بأنها ملتقى تجار المسلمين والنصارى من

جميع الآفاق. ولا عجب فقد كانت حينئذ أهم ثغور الصليبيين. وعلم هناك أن مركباً في ثغر صور عازم على الإبحار إلى بجاية بتونس. فذهب إلى صور ولكنه استصغر المركب فقفّل راجعاً إلى عكا بطريق البحر وركب فيها سفينة جنوبية كبيرة من سفن الحجاج المسيحيين والمسلمين كان قصدها ثغر مسينة بجزيرة صقلية. ودوّن ابن جبّير أنها كانت كالمدينة الجامعة؛ فيها أكثر من ألفي مسافر، ويباع فيها كل ما يحتاجه المسافر، وأن المسلمين كانوا في المركب بمعزل عن الإفرنج. وأشار إلى أن عدداً من المسافرين من المسلمين ومن البلغريين (تعريب لكلمة Peregrini بمعنى حجاج، في اللاتينية) هلكوا في السفينة فكدف بهم في البحر، وورثهم قائد المراكب لأن المتبع عندهم أنه يرث كل من يموت في البحر. واستغرقت الرحلة إلى مسينة حول شهرين، وكان المقرر لها نحو أسبوعين. والحق أنها كانت رحلة غنية بالأحداث والأخطار، تشهد بما كان يتعرض له المسافرون في البحر حينئذ، وبما كان يستلزمه قيادة السفن من مهارة وممران وصبر. وقد أتيح لابن جبّير في وصف عبور البحر الأبيض المتوسط قادمًا وعائدًا، وفي وصف عبوره البحر الأحمر، أن يستعمل كثيراً من مصطلحات الملاحة وبناء السفن في العصور الوسطى، فحفظ لنا بذلك عدداً وافراً منها، ويمكن الاستفادة منه في فهم بعض الأخرى المدونة في ذلك العصر.

أرست السفينة أخيراً عند مدينة مسينة في صقلية، فوصفها ابن جبّير؛ ولكنه وصف ملؤه المفارقات المتناقضات فبينما يقول إنه «لا يقر فيها لمسلم قرار» وإنها «لا توجد لغريب أنساً» إذ به يضيف إلى ذلك «أن أسواقها نافقة حفيلة، وأرزاقها واسعة بأرغاد العيش كفيلة، لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان وإن كنت غريب الوجه واليد واللسان». ويلوح أن ابن جبّير لم يكن قد

اطمأن بعد إلى حال المسلمين في صقلية، فإنه زار بعد ذلك بالرمة عاصمة البلاد، وزاد غيرها من مدن الجزيرة، ووصف عمرانها، وثقة حكامها المسيحيين برعاياها من المسلمين؛ وقد كان عددهم وافرًا في هذا الإقليم، الذى التقت فيه مختلف المدينيات الوثنية والمسيحية والإسلامية.

ولكننا لا نستطيع أن نركن إلى رحلة ابن جبير في الوقوف على حال المسلمين بصقلية، ومعرفة ما كانوا يتمتعون به من الحرية الدينية بعد أن زال سلطانهم عن هذه الجزيرة بقرن من الزمان. فأنّا نراه يدون ما يشهد بأن المسيحيين كانوا يحسنون معاملة المسلمين، ويستخدمونهم في الوظائف والمهن، حتى في أعظمها شأنًا ببلاط الأمير؛ وأنّا نراه يروى حديث رجل مسلم لقيه في مسينة، اسمه عبد المسيح، وقال له: «أنتم مدلون بإظهار الإسلام فائزون بما قصدتم له، رابحون إن شاء الله في متجركم، ونحن كاتمون إيماننا، خائفون على أنفسنا، متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرا».

وعلى كل حال فإن الذى وصل إليه المؤرخون أن الدولة النورمانية في صقلية كانت تشمل المسلمين بقسط وافر من رعايتها وكانت تعترف بفضلهم وسبق مدينتهم في كثير من نواحي الحياة. وإذا لم يكن ما كتبه ابن جبير في هذا الصدد واضحًا تمامًا، فإن سائر وصفه لبلاد صقلية عظيم الفائدة من الناحيتين التاريخية والجغرافية؛ لأنه كان دقيق الملاحظة في وصف الظواهر الاجتماعية. من ذلك ما فطن له من أن الخلاف بين أفراد الأسرة الواحدة من المسلمين كان يؤدي أحيانا إلى دخول بعضهم في المسيحية، فرارًا من رقابة أو ولاية أو علاقة شرعية أخرى.

ثم أقلع ابن جبير من صقلية على ظهر سفينة جنوية جملته إلى ثغر قرطاجنة في الأندلس فوصل إليها في الخامس عشر من المحرم سنة ٥٨١ ثم

واصل السفر حتى وصل إلى غرناطة في الثاني والعشرين من المحرم (٢٥) أبريل سنة (١١٨٥) بعد أن غاب عنها حول حول سنتين وثلاثة أشهر.

وقام ابن جبير برحلة ثانية إلى الشرق الإسلامي سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م)، استغرقت سنتين وبضعة أشهر. وقيل إن الذي جذب به إلى الشرق هذه المرة ما سمعه من استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سنة ٨٥٣هـ (١١٨٧م). ثم ترك ابن جبير المقام في غرناطة وانتقل إلى بلاد المغرب حيث أقام عشرين سنة أو نيف؛ رحل بعدها إلى الشرق مرة ثالثة سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م). وقيل إن ذلك كان بسبب وحده على زوجته عاتكة، التي توفيت في تلك السنة والتي نظم فيها ديوانه «نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح». واستقر ابن جبير في الإسكندرية، وتوفى بها في السنة نفسها وقد جاوز الثانية والسبعين.





الهروى السائح

هو على بن أبى بكر - وقيل أبى طالب - بن على الهروى الأصل . ولد في الموصل . وطاف في أنحاء الشرق الإسلامي وفي الهند وفي القسطنطينية والمغرب وصقلية وغيرها من جزائر البحر الأبيض المتوسط . وكان مغرماً بالأسفار وبكتابة اسمه على الآثار التى يزورها، حتى كتب عنه ابن خلكان «أنه لم يترك براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التى يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه» وقد سار ذكره بذلك، حتى عرف باسم الهروى السائح .

والمعروف أنه زار القسطنطينية في زمن الإمبراطور عمانوئيل كومنينوس، وأنه زار دمشق سنة ٥٦٨هـ (١١٧٣م) قبل أن يستعيدها صلاح الدين من يد الصليبيين . وكان في الإسكندرية سنة ٥٧٠هـ . ثم كان في قافلة نهبها الصليبيون سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م)؛ ففقد فيها كتبه وبعض المذكرات التى جمعها، ولعله كان حائناً لهذا السبب؛ أو لعل تقواه وشدة اعتداده بنفسه حملاه على أن يرفض مقابلة الملك ريكاردوس قلب الأسد، الذى سمع بفضله، وحرص على أن يتحدث إليه .

واتصل الهروى في خاتمة حياته بالملك الظاهر بن صلاح الدين؛ فأقام تحت رعايته في حلب إلى أن توفى سنة ٦١١هـ (١٢١٤م) .

وقد وصل إلينا من مؤلفات الهروى كتاب «الإشارات إلى معرفة الزيارات» ولا يزال مخطوطاً لم يطبع إلى اليوم: ولكن الرحالة يشير فيه إلى كتب أخرى من تأليفه، مثل كتاب «منازل الأرض ذات الطول والعرض» و«كتاب الآثار والعجائب والأصنام».

أما كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات، فقوامه ذكر الآثار والعمائر الدينية التى زارها الهروى والتى يستطرد فى الحديث عنها إلى بعض البيانات التاريخية الطريفة. وفى دار الكتب المصرية نسخة مخطوطة منه بعنوان «رحلة أبى الحسن بن أبى بكر بن على الهروى الموصلى، تمت كتابتها سنة ٦٠٢هـ» أى قبل وفاة المؤلف. ومما يؤسف له أن هذه الرحلة غنية بالخرافات والأساطير، وإن كنا نجد فى بعض أجزائها وصفاً وأحاديث تدل على دقة الملاحظة.

وقد نسخ الهروى على منوال كثير من المؤلفين، فقال فى مقدمة كتابه إن بعض الإخوان والخلان سألوه أن يذكر لهم ما زاره من الزيارات، وما شاهده من العجائب والأبنية والعمارات، وما رآه من الأصنام والآثار والطمسبات «فى الربع المسكون والقطر المعمور» وأنه رفض أن يلبي هذا الطلب، إلى أن اجتمع برسول الخليفة العباسي إلى صلاح الدين، وأقنعه هذا الرسول بتأليف الكتاب الذى وصل إلينا.

ومن الطريف أن الهروى اعتذر عما فى الكتاب من خطأ فقال: «وإن جرى السهو فيما أذكره بطريق الغلط لا بطريق القصد، فأسأل الناظر فيه والواقف عليه الصفح فى ذلك وإصلاح الخطأ وإيضاح الحق؛ فإن كتبى أخذها الانكتار ملك الفرنج؛ ورغب فى وصوله إليه، فلم يمكن ذلك، ومنها ما غرق فى البحر، وقد زرت أماكن ودخلت بلاداً من سنين كثيرة؛ وقد

نسيت أكثر ما رأيته، وشذ عنى أكثر ما عايته، وهذا مقام لا يدركه أحد من السائحين والزهاد، ولا يصل إليه أكثر المسافرين والعباد، إلا رجل جال الأرض بقدمه، وأثبت ما قلته بقلبه وقلمه».

ومما كتبه الهروى: «الأهرام من عجائب الدنيا، وليس على وجه الأرض شريقها وغريبها عمارة أعجب منها ولا أعظم ولا أرفع، ورأيت بمصر أهراماً كثيرة منها خمسة كبار والباقي صغار. فأما الكبار فاثنان عند الجزيرة واثنان عند قرية يقال لها دهشور، وهرم عند قرية يقال لها ميدوم، وقد اختلفت أقاويل الناس فيها وفي بانيها وما يريد بها، ومنهم من قال إنها قبور للملوك، ومنهم من قال إنهم عملوها خوفاً من الطوفان، وقيل إن المأمون فتح هرماً منها، وهو أحد الهرمين اللذين عند الجزيرة؛ فوجدوا داخله بئراً مربعة، في تربيعها أبواب يفضى كل باب منها إلى بيت فيه موتى بكفانهم، وقيل إنهم وجدوا في رأس هذا الهرم بيتاً فيه حوض من الصخر على مثال القبر، وفيه صنم كالآدمى الرهنج، وفي وسطه إنسان عليه درع من الذهب مرصع بالجواهر، وعلى صدره سيف لا قيمة له وعند رأسه حجر ياقوت كالبيضة كالنار». وأضاف الهروى أنه دخل إلى هذا الهرم ورأى الحوض واضحاً، وقد كتب أنه سيذكر في كتاب العجائب والآثار والأصنام والطلسمات جميع ما سمعه من أخبار الأهرام والضم أبى الهول وجميع البرابى (المعابد) التى ببلاد الصعيد.

ومما دونه عن الأقصر: «مدينة بها من الآثار والقصور والأصنام، وصور الأصنام وصور السباع والدواب ما لم أر مثله في بلاد الصعيد ولا في غيرها، وذرعت يد صنم فكان من المرفق إلى مفصل الكف سبعة أذرع».

وقد كتب الهروى عن المقابر الأثرية في صعيد مصر، وعن الجثث

المدفونة فيها، وعن أكفانها المحفوظة على حالها الأولى. والحق أن الاكتشافات الأثرية الحديثة، والمنسوجات الوافرة التي عثر عليها المنتقبون عن الآثار في تلك المقابر، كل ذلك يؤيد ما كتبه الهروى كل التأيد.

وكتب عن أسوان: «آخر بلاد الصعيد وبلاد الإسلام وبها الجنادل حجارة نابتة في وسط البحر. فإذا كان وقت زيادة النيل، يوضع عليها سرج. فإذا زاد البحر وأخذها، وأرسلوا البشارة إلى مصر. فينزلوا في مركب صغير ويسبقوا الماء ويبشروهم بالزيادة. وجميع معادن حجارة المانع والعمد التي بالديار المصرية ومسال فرعون وعمد السوارى بالإسكندرية من جبال هذه المدينة. ورأيت آثار القطاعات في الجبل والحجارة المانع والعمد مقطوعة».

وقد أعجب الهروى بما رأى في مصر من زهور ونبات، فكتب في رحلته «وبالجملة في ديار مصر ونيلها من عجائب الدنيا، ورأيت بها في أوان واحد مجتمعاً ورداً ثلاثة ألوان وياسمين لونين ونيلوفر لونين وآسا ونسريتاً وريحاناً وخبزياً وبنفسجاً ومنتوراً ونبقاً وأثرنجاً وليموناً مركباً وطلعاً ورطباً وموزاً وجميزاً وحصرماً وعنباً وطيناً (تيناً) أخضر ولوزاً وقثاء وفقوساً وبطيخاً وباذنجاناً وباقلأ أخضر ويقىناً وحمصاً أخضر وخساً وجوزاً أخضر ورماناً وهليوناً وقصب سكر».





أسامة بن منقذ

هو أسامة بن مرشد من بنى منقذ، أمراء إقليم شيزر شمالي سورية. ولد سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥). وكانت إمارة هذا الإقليم قد آلت إلى أبيه مرشد ولكنه تنازل عنها لأخيه. وعنى الأمير بأسامة، ابن أخيه؛ ولكنه رزق ولداً ذكراً فاتجه إليه بعطفه، مهملًا أسامة. وغادر هذا قلعة شيزر. وحدث أن دمرت هذه القلعة في زلزال سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م) ومات من كان فيها من آل منقذ. أما أسامة فقد كان في بعض أسفاره. ومات سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م) بعد أن جاوز التسعين.

وقد قام أسامة بعدة رحلات في مصر والشام وبلاد الجزيرة وبلاد العرب. ومع أنها رحلات ضيقة الأفق محدودة الدائرة، فإن لها شأنًا عظيمًا في وصف الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وفي بيان العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في الشرق الأدنى في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). ذلك أن أسامة كان أميراً فارساً وأديباً شاعراً، وأتيح له أن يتصل بأمراء المسلمين في عصره، وأن يلقي بعض الأمراء الصليبيين ويصادق الفرسان من رجالهم. وأخبار رحلته في كتابه «الاعتبار» تمتاز بالدقة في الملاحظة، والصدق في الرواية، والإبداع في الفن القصصي، مع التوفيق في الفكاهة وإيراد النكتة.

وقد وقف الدكتور فيليب حَتَّى Philip Hitti اللبناني أستاذ الآداب السامية في جامعة برنستون بالولايات المتحدة على نشر كتاب الاعتبار سنة ١٩٣٠. وقدمه بترجمة طريفة لأسامة، قال فيها: «فحياة أسامة إذن تمثل لنا الفروسية الإسلامية العربية على ما ازدهرت في ربوع الشام في أواسط القرون الوسطى، والتي بلغت حدها الكامل في صلاح الدين، وسيرته تتضمن موجز تاريخ البلاد في القرن الثاني عشر - قرن التجريدات الصليبية الثلاث الأولى، ومذكراته الموسومة بكتاب «الاعتبار» مرآة تتجلى فيها المدينة الشامية في أجلى مظاهرها - وذلك ليس بحد ذاتها فقط بل مع المدينة الإفريقية التي قامت إلى جانبها. ولو أن أسامة عاش اليوم، لكان عضوا عاملا في المجمع العلمي العربي، ولكان بيته صالوناً للأدب بدمشق، ولراسل «الهلال» و«المقطم» ولأكثر من العيش في الهواء الطلق، يدرس طبائع الحيوان ويرقب نمو النبات، ولنالت جياده العربية جوائز السبق في بيروت، ولكان بلا تردد في أثناء الحرب العظمى ديوان فرقة من المطوعة يتولى قيادتها بنفسه».

وكتاب «الاعتبار» غنى بأخبار القتال بين المسلمين والصليبيين، وبما شاهده أسامة في دمشق ومصر، وبما اشترك فيه من المطارد والمسايد ومكافحة الأسود. ومن أمتع فصوله ما كتبه أسامة عن الصليبيين؛ فقد كان يطوف في أنحاء إماراتهم، ويقاطلهم مع سائر المسلمين مع صداقته لبعضهم ولا سيما الفرسان الداوية Templars - وكان هؤلاء الفرسان يخلون له في المسجد الأقصى مكانا صغيراً يصلى فيه حين يزور بيت المقدس. ومما كتبه عن الإفرنج: «ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة. يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته يلقيه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها. والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث. فإذا طولت عليه خالها مع المتحدث

ومضى!». وساق أسامة ثلاث قصص في هذا الصدد. منها قصة إفرنجي «جاء يوماً ووجد رجلاً مع امرأته في الفراش» فقال له: «أى شيء أدخلك إلى عند امرأتى؟» قال «كنت تعباً، دخلت أستريح». قال «فكيف دخلت إلى فراشي؟» قال «وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه» قال «والمرأة نائمة معك؟» قال «الفراش لها. كنت أقدر أمنعها من فراشها!؟» قال الزوج «وحق ديني، إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت» - فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته!». .

وكان أسامة يعجب بمهارة بعض أطباء الصليبيين، ولكنه كان يتهكم من جهل البعض الآخر ومن سذاجة الناس في الإيمان بهم. وروى في هذا الصدد قصة عن حاكم بلدة صليبية شمالى لبنان. كان هذا الحاكم صديقاً لعم أسامة فكتب إليه يطلب منه إيفاد طبيب يداوى بعض المرضى من أهل بلده. فأرسل إليه عم أسامة طبيباً عربياً نصرانياً. ولم يطل غياب هذا الطبيب؛ فلما رجع قال له أهل أسامة متهمين: ما أسرع ما داويت المرضى! فأجاب «أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف^(١). فعلمت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت. وحميت المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجي فقال «هذا ما يعرف شيء يداويهم!» وقال للفارس «أيهما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟» قال «أعيش برجل واحدة» قال «أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً». فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب فقال للفارس «أضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها» فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته. وأبصر المرأة فقال «هذه امرأة من رأسها شيطان قد عشقها. احلقوا شعرها» فحلقوه. وعادت تأكل من مآكلهم

(١) نوع من الهبوط والتعب العصبي.

الثوم والخردل فزاد بها النشاف. فقال «الشیطان قد دخل في رأسها» فأخذ موسى وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت في وقتها. فقلت لهم «بقى لكم إلى حاجة؟!» قالوا «لا» فجئت وقد تعلمت من طبعهم ما لم أكن أعرفه^(١)!.

وروى أسامة في كتاب الاعتبار (ص ١٣٤ - ١٣٥) قصة استنبط منها أن الصليبيين ترق أخلاقهم وتحسن طباعهم باستيطان الشرق ومعاشرتهم المسلمين. وقال في هذا الصدد: «فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين تلبدوا^(٢) وعاشروا المسلمين».

بل أشار أسامة في كتابه إلى أن بعض الصليبيين تأقلموا في الشام، وعاشروا المسلمين وتطبعوا بطباعهم، وكانت بينهم وبين المسلمين علاقات طيبة قال أسامة «فمن ذلك أنى نفذت صاحباً إلى أنطاكية في شغل. وكان بها الرئيس تادرس بن الصفتي (Theodorus Sophianos) وبينى وبينه صداقة، وهو نافذ الحكم في أنطاكية. فقال لصاحبي يوماً «قد دعاني صديق لي من الإفرنج. تجيء معي حتى ترى زيهم؟» قال «فمضيت معه، فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق، الذين خرجوا في أول خروج الإفرنج، وقد اعتفى من الديوان والخدمة، وله بأنطاكية ملك يعيش منه، فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة. ورآني متوقفاً عن الأكل؟ فقال: «كل طيب النفس، فأنا ما أكل طعام الإفرنج، ولى طبابخات مصريات ما أكل إلا من طبيخهن ولا يدخل داري لحم الخنزير، فأكلت وأنا محترز وانصرفنا».

(١) كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٢) لعل يقصد «تأقلموا» وأصبحوا من أبناء البلد.

وقد وصف أسامة في «كتاب الاعتبار» ما شاهده في مصر من الأحداث فيما بين سنتي ٥٣٩ و ٥٤٩ هـ (١١٤٤-١١٥٤ م) فتحدث عن وصوله إليها في عصر الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله وعما وقع فيها من الفتن بسبب ثورات الجند، والنزاع القائم بين الخلفاء والوزراء. ولتفاصيل هذه الأخبار شأن تاريخي كبير لأن أسامة ساهم في بعض تلك الأحداث وقام بمهمات سياسية لطائفة من الأمراء. ومن طريف ملاحظاته عن إقليم الطور أنه كان ولاية مصرية بعيدة وأن الخليفة الحافظ لدين الله كان إذا أراد إبعاد بعض الأمراء ولأه الطور.

أما الباب الذي عقده أسامة في ذلك الكتاب الكلام على الصيد والطرده فيشهد بأن هذا اللون من الرياضة كان جد شائع ومستحسن في الشرق الإسلامي حينذاك. وهو جليل الشأن لأن أسامة كان من أسرة أصابت في الصيد مهارة ودربة؛ وقد أتيح لأسامة نفسه أن يصحب في الصيد الأمراء المسلمين في سورية والجزيرة ومصر. فدوّن في كتابه شيئاً كثيراً في شأن الصيد بالبزة يرمونها على الطيور ويدقون الطبول فتصيد منها ما تصيد. وكتب في صيد الحيوان ولا سيما الذئب والضبع والأرنب والغزال وحمار الوحش والثعلب والخنزير. ووصف أسامة أساليب الصيد عند المسلمين وصفاً دقيقاً. وذكر بعض النوادر التي تدل على عنايتهم به وعلى أن بعض المولعين بالصيد كانوا يرسلون إلى مختلف الآفاق في طلب البزة وغيرها من طيور القنص. وكان التعاون صادقاً بين المسيحيين والمسلمين في هذا الميدان؛ فكان الروم في القسطنطينية والمسيحيون من الأرمن يرسلون البزة والكلاب إلى أصدقائهم من هواة الصيد في الشرق الإسلامي.

وكان أسامة يحترم المرأة ويعنى بأحوالها فألف كتاباً في «أخبار النساء» وروى في «كتاب الاعتبار» قصصاً كثيرة تشهد بما قام به بعض النساء من أعمال البطولة. ولعل هذا جانب من الفروسية ونزعة الأرستقراطية عنده. والحق أن هذه النزعة الأرستقراطية كانت لا تفارقه حتى في حضرة الملوك والأمراء. فقد روى في «كتاب الاعتبار» أنه شهد يوماً الصيد مع الملك العادل نور الدين وسأله هذا أن يصلح الباز فرفض وأظهر نور الدين عجبه من أسامة يقضى عمره بالصيد ولا يحسن إصلاح الباز، فأجاب أسامة: «يا مولاي، ما كنا نصلحها نحن، كان لنا بازيارية وغلمان يصلحونها ويتصيدون بها قدامنا».

ومما حدث لأسامة في بعض رحلاته أن وقع وهو ورفاقه أسرى في يد الصليبيين وفقدوا ما كانوا يحملونه من المال والمتاع؛ ولكن أسامة لم يأسف على ذلك كله أسفه على ضياع كتبه التي نبهوها، وعددها أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة؛ وقال في ذلك إن ذهابها كان حزاة في قلبه ما عاش^(١). ومن طريف ما يستنبط من إحدى القصص التي رواها أسامة في «كتاب الاعتبار» (ص ١١٥) أن استئجار الندابات للندب في المآتم كان معروفا في القرآن الثاني الميلادي كما هو معروف اليوم.

وكان أسامة، مثل الهروي السائح، مغرمًا بكتابة اسمه أو تقييد بعض خواطره في الأمكنة التي ينزل بها، على نحو ما يفعل بعض السياح في العهد الحاضر. من ذلك الآيات الآتية، وقد كتبها على حائط مسجد في حلب، وكان قد زار المسجد قبلا في طريقه إلى الحج:

(١) كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ص ٣٤ - ٣٥ .

لك الحمد يا مولاي كم لك منة علىّ وفضل لا يحيط بها شكرى
نزلت بهذا المسجد العام قافلاً من الغزو موفور النصيب من الأجر
ومنه رحلت العيس في عامي الذي مضى نحو بيت الله والركن والحجر
فأديت مفروضاً وأسقطت ثقل ما تحملت من وزر المسيئة عن ظهري
ومنه ما كتبه على حائط دار سكنها بالموصل، حيث لم تطب له
الإقامة. قال:

دار سكنت بها كرهاً وما سكنت روحى إلى شجن فيها ولا سكن
والقبر أستر لى منها وأجمل بى إن صدنى الدهر عن عودى إلى وطنى





ياقوت الحموى

كان ياقوت يوناني الجنس . ولد حول سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م) وأسر في حادثته ، وبيع إلى تاجر حموى مقيم في بغداد ، فنشأ مسلماً ، وعنى التاجر بتعليمه لينتفع به في تجارته ، فتلقى العلوم المعروفة في عصره . ثم قام بعدة أسفار في أعمال تجارية لسيدته ، ولا سيما بمنطقة الخليج الفارسي . وأعتقه مولاه سنة ٥٩٦هـ (١١٩٩م) . وأشركه في تجارته ، وأخذ يبعثه في شئونها إلى الأصقاع المختلفة . وحدث أن دب بينهما الخلاف ، فاحترف ياقوت نسخ الكتب ، وأفاد من ذلك كثيراً ، ثم صافى سيده السابق ، واستأنف الأسفار التجارية . ومات السيد ، فاشتغل ياقوت بتجارة الكتب ؛ ولكنه لم يلبث إن عاد إلى حياة الأسفار والرحلات ، فجال في إيران وبلاد العرب وآسيا الصغرى ومصر والشام وبلاد ما وراء النهر . وأقبل على التنقيب في خزانات الكتب ، فجمع المواد اللازمة للمعاجم التي عقد العزم على تأليفها في أسماء البلاد وتراجم الأدباء .

ويلوح أنه أفاد من خزائن مدينة إفادة كبيرة ؛ فقد أشار إلى ذلك في كلامه على هذه المدينة في «معجم البلدان» ؛ فذكر أنه أقام بها ثلاثة أعوام وأنه



[عن كتاب الرواد]

خريطة الكرة الأرضية للشریف الإدريسی

تركها وفيها عشر خزانات كبيرة، لم ير في أي مدينة أخرى مثلها. وكان العمل فيها واستعارة كتبها الموقوفة أمراً سهلاً، حتى أن عدد ما كان عند ياقوت من هذه الكتب في الآن الواحد كان يقرب من مائتي مجلد. والظاهر أنه كان يدفع رهناً للنادر منها. ولكن أكثرها كان بغير رهن. وقد ختم ياقوت حديثه عن هذه الخزانات بقوله «فكنت أرتع فيها، وأقتبس من فوائدها، وأنساني حبها كل بلد، وأنهاني عن الأهل والوالد. وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته، فهو من تلك الخزائن».

والمعروف أن ياقوت لم يدون أخبار رحلاته. ولا ريب في أن ما شاهدته في أسفاره وما جمعه من الخزائن التي نقب فيها، كان خير عدة له في تأليف كتابه «معجم البلدان» الذي امتاز بترتيبه على حروف الهجاء، وبدقته واتساعه وجمعه بين الجغرافية والتاريخ والعلم والأدب، حتى أن أحد المستشرقين قال فيه إنه من المؤلفات التي يحق للإسلام أن يفخر بها كل الفخر^(١). وقد فرغ ياقوت من تأليف هذا المعجم في سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٤ م).

ومما يؤسف له أننا لا نستطيع أن نحدد مقدار ما أفاده ياقوت من رحلاته تحديداً دقيقاً. فإنه نقل في معجمه عن كثير من الجغرافيين والرحالة والمؤرخين، ولم يعين الأقاليم التي زارها بنفسه وكتب عنها مشاهداته الخاصة؛ مع أنه كان من أكثر العلماء طوافاً في عصره، ومن أشدهم عناية بالتاريخ الطبيعي ومظاهر الثقافة الشاملة، ومن أبعدهم عن الأخذ بالخرافات

(١) Carra de Vaux: Les penseurs de l'Islam ج ٢ ص ١٩.

والأساطير. وقد عني أحد المستشرقين (Heer) في نهاية القرن الماضي بدراسة معجم البلدان وأخرج بحثا في المراجع التاريخية والجغرافية التي اعتمدها ياقوت لتصنيف هذا المعجم. ولكن أحدا لم يستطع حتى الآن أن يبين الخاص وأثار أسفاره وتجاربه في هذه الموسوعة الجغرافية الجليلة الشأن.

ومهما يكن من شيء فقد امتاز ياقوت عن كثير من مؤلفي العرب بملكة النقد التي كانت تتجلى في روايته بعض الأساطير الذائعة في عصره وفي حكمه على بعض الأساطير والتعليل لها. من ذلك ما لاحظته الدكتور حسين فوزي في كتابه «حديث السندباد القديم» (ص ١٢٣). فقد كتب ياقوت في مادة (جاسك) من «معجم البلدان»:

«جاسك بفتح السين المهملة وآخره كاف. جزيرة كبيرة بين جزيرة قيس هي المعروفة بكيش - وعمان قبالة مدينة هرمز. بينها وبين قيس ثلاثة أيام وفيها مساكن وعمارات يسكنها جند ملك جزيرة قيس. وهم رجال أجلاء أكفاء لهم صبر وخبرة بالحرب في البحر وعلاج للسفن والمراكب ليس لغيرهم. وسمعت غير واحد من جزيرة قيس أهدى يقول أهدى إلى بعض الملوك جواري من الهند في مراكب فرفأت تلك المراكب إلى هذه الجزيرة فخرجت الجواري يتفسحن فاختطفهن الجن وافترشهن فولدن هؤلاء الذين بها».

وطبيعي أن يروى ياقوت هذا الحديث المتداول بين أهل زمانه؛ ولكنه يحرص على أن يشعرنا بأنه أسطورة وعلى أن ينسبه إلى قائله فينص على أنه سمعه من «غير واحد من دجزيرة قيس» كما يحرص بعد هذا كله على محاولة تفسيره فيضيف:

«يقولون هذا لما يروى فيهم من الجلد الذي يعجز عنه غيرهم، ولقد حدثت أن الرجل منهم يسبح في البحر أياما وأنه يجالد بالسيف وهو يسبح مجالدة من هو على الأرض».

